سأرتِّب حـركة حيـاتى بناءً على هذا الوعد ، فـإذا أخلفتَ وعدك فـقد أطلقتَ نفسك فى زمنك وتصـرفت حسْب راحتك ، وقيَّدْت حركتى أنا فى زمنى وضـيَّعت مصـالحى ، وأربكـت حركـة يومى ؛ لذلك شـدَّد الإسلام على مسألة خُلْف الوعد .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

فى الآيات السـابقة تحدَّث عن الصلاة من حـيث هيئة الخـشوع والخضوع فيها ، وهنا يذكر الصـلاة من حيث أدائها والحفاظ عليها ؛ لأن الحفظ يعنى أن تأخذ كل وقت من أوقات الصـلاة بميلاده وميلاد الأوقات بالأذان ، لكن البعض يقولون : إن الوقت مُمْـتدٌ ، فالظهر مثلاً مُـمْـتـد من أذان الظهـر إلى قـبل أذان العـصـر ، وهـكذا فى باقى الصلوات .

نقول : نعم هذا صحيح والوقت مُمتد ، لكن مَنْ يضمن لك الحياة إلى آخـر الوقت ؟ مَنْ يضـمن لك أن تصلى العـشـاء مثـلاً قـبل أذان الفـجر ؟ نعـم ، تظل غيـر آثم إلى آخـر لحظة إذا تمكنتَ من الصــلاة وصلَّيْتَ ، لكن هل تضمن هذا ؟ كالذى يستطيع أن يحج ، إلا أنه أخَّر الحج إلى آخر أيامه ، فإنْ حج فلا شىء علـيه ، لكنه لا يضمن البقاء إلى أنْ يحج ؛ لذلك يجـب المبـادرة بالحج عند أول اسـتطاعـة حـتى لا تأثم إنْ فاتك وأنت قادر .

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ[1] ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) قال القـرطبى فى تفـسيره (٦/٤٦٤١) : « أى : يـرثون منازل أهل النار من الجنة . وفى الخـبر عن أبى هريـرة عن النبى ﷺ : « إن الله تعالى جـعل لكل إنسـان مـسكناً فى الجنة ومسكناً فى النار ، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون منازل الكفار ويجعل الكفار فى منازلهم فى النار » خرجه ابن ماجه بمعناه » .

﴿أُولَٰئِكَ ⑩﴾ [المؤمنون] يعنى : أصحاب الصفات المتقدمة ، وهم ستة أصناف : الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون .

هؤلاء هم الوارثون ، والإرْث : أَخْذ حق من غير عقد أو هبة ؛ لأن أَخْذ مال الغير لا بُدَّ أن يكون إما ببيع وعقد ، وإما هبة من صاحب المال . لذلك سألوا الوارث : أهذا حقك ؟ قال : نعم ، قالوا : فما صكُّك عليه ؟ يعنى : أين العقد الذى أخذته به ؟ قال : عقدى وصكِّى : ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ⑪﴾ [النساء] فهو عقد أوثق وأعلى من تعاقد البشر .

وما دام عقدى من الحق - تبارك وتعالى - فلا تقُلْ : إن الميراث مأخوذ بغير عقد ؛ لأنه قائم على أوثق العقود ، وهو العقد من الله .

وكثيراً ما يخرج الناس فى مسألة الميراث عما شرع الله حُباً فى المال واستئثاراً به ، أو بخلاً على مَنْ جعل له الشرع نصيباً ، فمَنْ كان عنده البنون والبنات يعطى البنين ويحرم البنات ، ومَنْ كان عنده بنات يكتب لهُنَّ ما يملك حتى يحرم إخوته وأعمامهم من حقهم فى ماله ، وهذا كثيراً ما يحدث فى المجتمع .

ويجب عليك أن تتنبه لمسألة الميراث وتحترم شرع الله فيه وتقسيم الله للمال ، فقد وهبك الله المال وتركك تتصرف فيه طوال حياتك ، وليس لك أن تتصرف فيه أيضاً بعد موتك ، عليك أنْ تدعَ المال لصاحبه وواهبه يتصرف فيه ؛ لذلك قال الله تعالى عن الإرث : ﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ⑪﴾ [النساء] يعنى : ليست من أحد آخر ، وما دامت فريضة من الله فعليك أنْ تمتثل لها وتنفذها ، وحين تتأبَّى عليها فإنك تتأبَّى على الله وترفض قسْمته .

والمتأمل فى مسألة الإرث يجد الخير كل الخير فيما شرعه الله ، ومَنْ كان يحب البنين فليُعْط البنات حتى لا يفسد علاقة أولاده من بعده ، ويأتى إلينا بعض الرجال الذين أخذوا كل مال أبيهم وحرَموا منه البنات ، يقولون : نريد أن نُصحِّح هذا الخطأ ونعيد القسمة على ما شرع الله .

ونجد عند بعض الناس إشراقات إيمانية ، فإنْ رفض بعض الإخوة إعادة التقسيم على شرع الله يقول : أنا أتحمل ميراث أخواتى من مالى الخاص ، ومثل هؤلاء يفتح الله عليهم ويبارك لهم فيما بقى ؛ لأنهم جعلوا اعتمادهم على الله فيزيدهم من فضله ويُربى لهم القليل حتى يصير كثيراً ، أما مَنِ اعتمد على ما فى يده فإن الله يكلُه إليه .

ونعجب من الذى يجعل ماله للبنات ليحرم منه إخوته ، نقول له : أنت لستَ عادلاً فى هذا التصرف ، يجب أن تعاملهم بالمثل ، فلو تركت بناتك فقراء لا مال لهن ، فمَنْ يعولهُنَّ ويرعاهن من بعدك ؟ يعولهن الأعمام . إذن : لتكُنْ معاملة بالمثل .

والحق - تبارك وتعالى - حين يُورث هذه الأصناف يورثهم بفضله وكرمه ، وقد بيَّن النبى ﷺ ذلك بقوله : « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته »[1] .

أما قوله تعالى : ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل] فهذا خاص بمجرد دخول الجنة ، أما الزيادة فهى من فضل الله ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ (١٧٣) ﴾ [النساء]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ومن أسمائه تعالى (الوارث) وقال : ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنبياء] فماذا يرث الحق سبحانه وتعالى منَّا ؟

لقد خلق الله الخَلْق ، وأعطى للناس أسباب ملكيته ، ووزَّع هذه الملكية بين عباده : هذا يملك كذا ، وهذا يملك كذا من فضل الله تعالى . فإذا كان يوم القيامة عاد المُلْك كله إلى صاحبه ، وكان الحق سبحانه وتعالىٰ هو الوارث الوحيد يوم يقول : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [غافر]

والله خير الوارثين ؛ لأن الوارث يأخذ ما ورثه لينتفع هو به ، لكن الحق سبحانه يرث ما تركه للغير ليعود خَيْره عليهم ويزيدهم ، ويعطيهم أضعافاً مضاعفة ، وإذا كان يعطيهم في الدنيا بأسباب فإنه في الآخرة يرث هذه الأسباب ، ويعطيهم من فضله بلا أسباب ، حيث تعيش في الجنة مستريحاً لا تعبَ ولا نصبَ ولا سَعْيَ ، وما يخطر ببالك تجده بين يديك دون أنْ تُحرِّك ساكناً .

إذن : البشر يرثون ليأخذوا ، أمَّا الحق سبحانه فيرث ليعطي ؛ لذلك فهو خير الوارثين .

فأيُّ شيء يرثه المؤمنون الذين توفرت فيهم هذه الصفات ؟ يجيب الحق سبحانه :

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾

إذن : الحق سبحانه ورَّثهم في الفانية ليعطيهم الفردوس الخالد في الآخرة ، والفردوس أعلى الجنة ، فورث الحق لينفع عباده ويُصعِّد النفع لهم ، ففي الدنيا كنا ننتفع بالأسباب ، وفي الآخرة ننتفع بغير أسباب ، الحق ورث ليعطي ، لا مثْل ما أخذ إنما فوق ما أخذ ؛ لأننا

نأخذ فى الميراث ما يفنى ، والله تعالى يعطينا فى ميراثه ما يبقى .

لكن مِمَّنْ يرثون الفردوس ؟

قالوا : الحق ـ تبارك وتعالى ـ عندما خلق الخَلْق ، وجعل فيهم الاختيار بين الإيمان والكفر ، وبين الطاعة والمعصية رتَّبَ على ذلك أموراً ، فجعل الجنة على فرض أن الخَلْق كلهم مؤمنون ، بحيث لو دخلوا الجنة جميعاً ما كانت هناك أزمة أماكن ولا زحام ، وكذلك جعل النار على فرض أن الخَلْق كلهم كافرون ، فلو كفر الناس جميعاً لكان لكل منهم مكانه فى النار .

وعليه فحين يدخل أهل الجنةِ الجنةَ يتركون أماكنهم فى النار ، وحين يدخل أهل النارِ النارَ يتركون أماكنهم فى الجنة ، فيرث أهل النار الأماكن الشاغرة فيها ، ويرث أهل الجنة الأماكن الشاغرة فيها .

والفردوس أعلى مكان فى الجنة ، لذلك كان النبى ﷺ يقول : « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة »[1] ذلك ؛ لأن الفردوس جنة على أعلى رَبْوة فى الجنة . يعنى : فى مكان مُميَّز منها ، والعلو فى مسألة المسكن والجنان أمر محبوب فى الدنيا ، الناس يُحبون السُّكْنى فى الأماكن العالية ، حيث نقاء الهواء ونقاء الماء ، ألاَ تراهم يزرعون فى المرتفعات ، وإنْ كانت الأرض مستوية يجعلون فيها مصارف منخفضة تمتصُّ الماء الزائد الذى يفسد الزرع ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ (٢٦٥) ﴾ [البقرة]

كذلك الأرض المرتفعة لا تُسقَى بالماء الغمر ، إنما تُسقَى من ماء

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٣٣٥ ، ٣٣٩) ، والبخارى فى صحيحه (٧٤٢٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

السماء الذى يغسل الأوراق قبل أن يروى الجذور ، فيكون النبات على أفضل ما يكون ؛ لذلك يقول عنها رب العزة : ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ (٢٦٥)﴾ [البقرة]

ومعلوم أن الأوراق هى رئة النبات ، وعليها تقوم عملية التمثيل الضوئى التى يصنع منها النبات غذاءه ، فإذا ما سُدَّت مسام الأوراق وتراكم عليها الغبار فإن ذلك يُقلِّل من قدرة النبات على التنفس ، مثل الإنسان حينما يُصاب بشىء فى رئته تزعجه وتُقلِّل من كفاءته .

وفى الفردوس ميزة أخرى هى أن الحق سبحانه وتعالى هو الذى غرس شجرها بيده ، كما كرَّم آدم عليه السلام فخلقه بيده تعالى ، فقال : ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ.. (٧٥)﴾ [ص]

ويُروى أن الحق - تبارك وتعالى - لما خلق الفردوس ، وغرس أشجارها بيده قال للفردوس[1] : تكلمى ، فلما تكلمت الفردوس قالت : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١)﴾ [المؤمنون]

ثم يقول تعالى : ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)﴾ [المؤمنون] لأن نعيم الجنة باقٍ ودائم لا ينقطع ، وقد عرفنا أن نعيم الدنيا موقوت مهما أُوتى الإنسان منه ، فإنه منقطع زائل ، إما أنْ يتركك بالفقر والحاجة ، وإمَّا أنْ تتركه أنت بالموت ، لذلك يقول تعالى فى نعيم الآخرة : ﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة]

وهكذا نلحظ على استهلال هذه السورة أن الحق سبحانه بدأ بالكلام عن الفلاح فى الآخرة كأنه قدَّم ثمرة الإيمان أولاً ، ووضع

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٣٩٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال ﷺ : « خلق الله جنة عدن ، وغرس أشجارها بيده فقال لها : تكلّمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون » . قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبى فى تلخيصه : بل ضعيف .

الجزاء بداية بين يديك كأنه سبحانه يقول لك : هذا جزاء مَنْ آمن بى واتبع منهجى . كما جاء فى قوله تعالى فى استهلال سورة (الرحمن) :
﴿ الرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾
[الرحمن] كيف وقد خلق الله الإنسان أولاً ، ثم علَّمه القرآن ؟

قالوا : لأن الذى يصنع صنعة يضع لها قانونها ، ويُحدِّد لها مهمتها أولاً قبل أن يشرع فى صناعتها ، فمثلاً - ولله المثل الأعلى - الذى يصنع الثلاجة ، قبل أن يصنعها حدد عملها ومهمتها وقانون صيانتها والغاية منها .

والقرآن هو منهج الإنسان ، وقانون صيانته فى حركة الحياة ؛ لذلك خلق الله المنهج ووضع قانون الصيانة قبل أن يخلق الإنسان .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ﴾

سبق أن تكلمنا عن خَلْق الإنسان ، وعرفنا أن الخالق - عز وجل - خلق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من طين ، ومن أبعاضه خلق زوجه ، ثم بالتزاوج جاء عامة البشر كما قال تعالى :
﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ۝١ ﴾ [النساء]

ومسألة خَلْق السماء والأرض والناس مسألة احتفظ الله بها ، ولم يطلع عليها أحد ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١ ﴾ [الكهف]

فلا تُصْغ إلى هؤلاء المضلين فى كل زمان ومكان ، الذين يدَّعون العلم والمعرفة ، ونسمعهم يقولون : إن العالم كان كتلة واحدة تدور بسرعة فانفصل عنها أجزاء كوَّنَت الأرض .. الخ وعن الإنسان

يقولون : كان أصله قرداً ، إلى آخر هـذه الخرافات التى لا أساسَ لها من الصحة .

لذلك أعطانا الله تعـالى المناعـة الإيمانيـة التى تحـمينا أنْ ننسـاق خلف هذه النظريات ، فـأخبرنا سـبحـانه خبر هؤلاء وحـذرنا منهم ؛ لأنهم ما شهدوا شيئاً من الخَلْق ، ولم يتخذهم الله أعواناً فيقولون مثل هذا الكلام . إذن : هذا أمـر استأثر الله بعلمـه ، فلا تأخـذوا علمه إلاَّ مما أخبركم الله به .

وكلمة الإنـسان اسم جنس تطلق على المـفرد والمثنـى والجمع ، والمذكر والمؤنث ، فكل واحد منا إنسان ، بدليل أن الله تعالى استثنى من المفرد اللفظ جمعاً فى قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا .. (٣) ﴾ [العصر] فاستثنى من المفرد الجماعة .

ومـعنى ﴿ خَلَقْنَا (١٢) ﴾ [المؤمنون] أوجـدنا من عـدم ، وسـبق أن قلنا : إن الله تعالى أثبت للبشر صفة الخَلْق أيضاً مع الفارق بين خَلْق الله من عدم وخَلْق البـشر من مـوجود ، وخَلْق الله فيـه حركة وحـياة فينمو ويتكاثر ، أما ما يخلق البشر فـيجمد على حاله لا يتغير ؛ لذلك وصف الحق سبحانه ذاته فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

أما قَـوْل القرآن حكايةً عن عـيسى عليـه السلام : ﴿ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران] فهذه من خاصياته عليه السلام ، والإيجاد فيها بأمر من الله يُجريه على يد نبيه .

فالمعنى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ .. (١٢) ﴾ [المؤمنون] أى : الإنسان الأول ، وهو آدم عليـه السـلام ﴿ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المـؤمنون] والسلالة : خلاصة الشىء تُسَلُّ منه كـما يُسَلُّ السيف من غِمْده أى :

الجراب الذى يُوضَع فيه ، فالسيف هو الأداة الفتاكة الفاعلة ، أما الغمْد فهو مجرد حافظ وحامل لهذا الشىء الهام .

فالسلالة - إذن - هى أجود ما فى الشىء ، وقد خلق الله الإنسان الأول من أجود عناصر الطين وأنواعه ، وهى زُبْد الطين ، فلو أخذتَ قبضة من الطين وضغطتَ عليها بين أصابعك يتفلَّتْ منها الزبد ، وهو أجود ما فى الطين ويبقى فى قبضتك بقايا رمال وأشياء خشنة .

ولما أحب سيدنا حسان بن ثابت أنْ يهجوَ قريشاً لمعاداتهم لرسول الله ﷺ قال : إئذن لى يا رسول الله أنْ أهْجُوهم من على المنبر فقال ﷺ : « أتهجوهم وأنا منهم ؟ » فقال حسان : أسلُك منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين[1] .

وتُطلَق السلالة على الشىء الجيد فيقولون : فلان من سلالة كذا ، وفلان سليل المجد . يعنى : فى مقام المدح ، حتى فى الخيل يحتفظون لها بسلالات معروفة أصيلة ويُسجِّلون لها شهادات ميلاد تثبت أصالة سلالتها ، ومن هنا جاءت شهرة الخيل العربية الأصيلة .

وقد أثبت العلم الحديث صدْق هذه الآية ، فبالتحليل المعمليّ التجريبى أثبتوا أن العناصر المكوِّنة للإنسان هى نفسها عناصر الطين ، وهى ستة عشر عنصراً ، تبدأ بالأكسوجين ، وتنتهى بالمنجنيز ، والمراد هنا التربة الطينية الخصْبة الصالحة للزراعة ؛ لأن الأرض عامة بها عناصر كثيرة قالوا : مائة وثلاثة عشر عنصراً .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٥٣١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٤٨٩) عن شيخهما عثمان بن أبى شيبة بسنده إلى عائشة رضى الله عنها .

يعنى : بعد أن جعلناه بشراً مُسْتوياً فيه روح جعلناه يتكاثر من نفسه ، وكما خلقناه من خلاصة الطين فى الإنسان الأول نخلقه فى النسلْ من خلاصة الماء وأصفى شىء فيه ، وهى النطفة ؛ لأن الإنسان يأكل ويشرب ويتنفس ، والدم يمتص خلاصة الغذاء ، والباقى يخرج على هيئة فضلات ، ثم يُصفَّى الدم ويرشح فى الرئة وفى الكلى ، ومن خلاصة الدم تكون طاقة الإنسان وتكون النطفة التى يخلق منها الإنسان . إذن : فهو حتى فى النطفة من سلالة مُنْتقاة .

والنطفة التى هى أساس خَلْق الإنسان تعيش فى وسط مناسب هو السائل المنوى ، لذلك قال سبحانه : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧)﴾ [القيامة] ثم جعلنا هذه النطفة ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)﴾ [المؤمنون] قرار : يعنى مُستقر تستقر فيه النطفة ، والقرار المكين هو الرحم خلقه الله على هذه الهيئة ، فحصَّنه بعظام الحوض ، وجعله مُعداً لاستقبال هذه النطفة والحفاظ عليها .

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾

يقول العلماء : بعد أربعين يوماً تتحول هذه النطفة إلى علقة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعلَق بجدار الرحم ، والعلماء يسمونها الزيجوت ، وهى عبارة عن بويضة مُخصَّبة ، وتبدأ فى أخذ غذائها منه .

ومن عجائب قدرة الله فى تكوين الإنسان أن المرأة إذا لم تحمل ينزل عليها دم الحيض ، فإذا ما حملتْ لا ترى الحيض أبداً ، لماذا ؟ لأن هذا الدم ينزل حين لم تكُنْ له مهمة ولا تستفيد به الأم ، أمّا وقد حدث الحمل فإنه يتحول بقدرة الله إلى غذاء لهذا الجنين الجديد .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً..(١٤)﴾ [المؤمنون] وهى قطعة صغيرة من اللحم على قَدْر ما يُمضَغ ، وسبق أن قلنا : إن المضغة تنقسم بعد ذلك إلى مُخلَّقة وغير مُخلَّقة ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ..(٥)﴾ [الحج] هذا على وجه التفصيل ، أما فى الآية التى معنا فيُحدِّثنا عن أطوار الخلق عامة ، حتى لا نظن أن القرآن فيه تكرار كما يدَّعِى البعض .

المضْغة المخلَّقة هى التى يتكوّن منها جوارح الإنسان وأعضاؤه ، وغير المخلَّقة تظل كما قلنا : احتياطياً لصيانة ما يتلف من الجسم ، كما يحدث مثلاً فى الجروح وما شابه ذلك من عطب يصيب الإنسان ، فتقوم غير المخلَّقة بدورها الاحتياطى .

ثم يقول تعالى : ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ..(١٤)﴾ [المؤمنون] لأنه كان فى كل هذه الأطوار : النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة ، ثم العظام واللحم ما يزال تابعاً لأمه متصلاً بها ويتغذّى منها ، فلما شاء الله له أنْ يُولَد ينفصل عن أمه ليباشر حياته بذاته ؛ ولذلك نجد لحظة انفصال الجنين عن أمه فى

عملية الولادة مسألة صعبة ؛ لأنه سيستقبل حياة ذاتية تستلزم أن تعمل أجهزته لأول مرة ، وأول هذه الأجهزة جهاز التنفس .

ومن رحمة الله بالجنين أن ينزل برأسه أولاً ليستطيع التنفس ، ثم يخرج باقي جسمه بعد ذلك ، فإن حدث العكس ونزل برجليه فربما يموت ؛ لأنه انفصل عن تبعيته لأمه ، وليس له قدرة على التنفس ليحتفظ بحياته الذاتية الجديدة ؛ لذلك في هذه الحالة يلجأ الطبيب إلى إجراء عملية قيصرية لإنقاذ الجنين من هذا الوضع ، وقبل أن يختنق .

ولما كانت مسألة خَلْق الإنسان فيها كثير من العِبَر والآيات ودلائل القدرة طوال هذه المراحل التي يتقلّب فيها الإنسان ، ناسب أنْ تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] لأنك حين تقف وتتأمل قدرة الله في خَلْق الإنسان لا تملك إلا أنْ تقول : سبحان الله ، تبارك الله الخالق .

لذلك يروى أن رسول الله ﷺ حينما قرأ هذه الآية سبق عمر فقال (فتبارك الله أحسن الخالقين) فقال ﷺ للكاتب : اكتبها فقد نزلت»[1] ، لأنها انفعال طبيعي لقدرة الله ، وعجيب صُنْعه ، وبديع خلقه ، وهذا نوع من التجاوب بين السليقة العربية واللسان العربي وبين أسلوب القرآن الذي جاء بلسان القوم .

---

(١) أثر عمر : أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن صالح أبي الخليل أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده ، إنها ختمت بالذي تكلمت يا عمر » [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/٩٢] .

ويقال : إن سيدنا معاذ بن جبل نطق بـها أيضاً[١] ، وكذلك نطق بها رجل آخر هو عبد الله بن سعد بن أبى السرح[٢] ، مع اختلاف فى نتيجة هذا النطق : لما نطق بها عمر ومعاذ رضى الله عنهما كان استحساناً وتعجباً ينتهى إلى الله ، ويُقِرّ له سبحانه بالقدرة وبديع الصُّنْع .

أما ابن أبى السرح فقد قالها كذلك تعجباً ، لكن لما وافق قولُه قولَ القرآن أُعْجِب بنفسه ، وادعى أنه يُوحَى إليه كما يُوحَى إلى محمد ، ولم لا وهو يقول كما يقول القرآن ، ومع ذلك هو ما يزال مؤدباً يدَّعى مجرد أنه يوحىَ إليه ، لكن زاد تعاليه وجرَّه غروره إلى أنْ قال : سأنزل مثلما أنزل الله ، فليس ضرورياً وجود الله فى هذه المسألة ، فارتدّ والعياذ بالله بسببها ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ .. (٩٣) ﴾ [الأنعام]

وظل ابن أبى السرح إلى فتح مكة حيث شفع فيه عثمان رضى الله عنه عند رسول الله ﷺ ، فلما رأى رسول الله حرْص عثمان عليه سكت ، ولم يقُلْ فيه شيئاً ، وعندها أخذه عثمان رضى الله عنه

---

(١) أثر معاذ بن جبل : أخرجه ابن راهويه وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : أملى علىّ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] إلى قوله ﴿ خَلْقًا آخَرَ .. (١٤) ﴾ [المؤمنون] فقال معاذ بن جبل : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال له معاذ : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : إنها ختمت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] .

(٢) هو : عبد الله بن سعد أبى سرح القرشى العامرى ، من بنى عامر بن لؤىّ فاتح أفريقية ، أسلم قبل فتح مكة ، كان من كتّاب الوحى ، وكان على ميمنة عمرو بن العاص حين افتتح مصر ووليها بعده لمدة ١٢ عاماً ، دانت له أفريقية كلها وهزم الروم فى معركة « ذات الصوارى » عام ٣٤ هـ . توفى عام ٣٧ هـ . [الاعلام للزركلى ٤/٨٩] .